-٣-

العلاقات مع الإمارات الصليبية

obeikandl.com

مثلت الإمارات الصليبية في الجزيرة وبلاد الشام (الرها – طرابلس) جانباً نشطاً في السياسة الخارجية النورية ، ويلاحظ تباين تلك السياسة من إمارة إلي أخرى وفقاً لموقعها ، و أهميتها ،و دورها في أحداث المنطقة . و من المعروف أن الحملة الصليبية الأولي نجحت في إقامة ثلاث إمارات هي الرها في أعلي نهر الفرات ،و أنطاكية في أقصى شمال الشام ، و طرابلس علي الساحل اللبناني ، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطاً وثيقاً مع بعضها البعض ،و كذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية .

وقد حظيت إمارة انطاكية بنصيب وافر من مجهودات الدولة النورية الحربية ، وأن عجزت عن إسقاطها نظراً لوقوف الإمبراطورية البيزنطية ،و مملكة بيت المقدس ضد محاولات نور الدين محمود لإخضاعها ، وقد عمل نور الدين علي تأكيد سيادة عماد الدين زنكي علي إمارة الرها ، ولذا قمع محاولة أميرها ، إعادتها إلي سيطرته من جديد ، أما إمارة طرابلس ؛ فإن الصراع ضدها تمثل في إسقاط حصونها المنيعة لتجريدها من مصادر قوتها العسكرية .و منطقي أن توجد بعض الدوافع الحيوية وراء توجه السياسة النورية صوب الإمارات الصليبية في بلاد الشام و الجزيرة ، مثلما وجدت من قبل في علاقتها مع مملكة بيت المقدس الصليبية ، وتتمثل تلك المواقع في دوافع دينية و اقتصادية ، و أخرى استراتيجية عسكرية .

أما الدوافع الدينية و هي التي لها أهميتها الكبرى بحيث نجعلها في الصدارة فهي ذاتها التي تم تناولها في معرض الحديث عن دوافع الدولة النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية ، و إذا اتجهنا من بعد ذلك إلي الدوافع الاقتصادية فنجدها تتمثل في الرغبة في السيطرة علي خطوط التجارة ،و المارة من حلب إلي أنطاكية بشمال الشام ، ومعلوم أن أنطاكية اشتهرت بازدهار النشاط التجاري ، و عدت مركزاً لتصريف التجارة الشامية إلي عالم البحر المتوسط و أوروبا [1] ، وقد وصلت إلي الطرق التجارية الأرمنية ،و القادمة من أعالي الجزيرة[2] ، علي نحو جعلها المستودع الأساسي للحاصلات

١- نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية ،ص ١٥١، ميخائيل زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ت. الياس شاهين ،ط. موسكو ١٩٨٦م ، ص ٨٥.

٢ - الحويري ، الأوضاع الحضارية ، ص ١٣١.

الواردة من بلاد الهند و الصين ، ونظراً لتلك الأهمية التجارية حرصت المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة و بيزا علي الحصول علي مراكز لها في أنطاكية منذ بدايات المشروع الصليبي في أخريات القرن الحادي عشر [١] .

طبيعي ،و الأمر كذلك ، أن تكون أنطاكية في بؤرة الاهتمام السياسي النوري ، من أجل الإفادة من عائد التجارة ، و المكوس المفروضة ، فإذا أضفنا إلي ذلك أنها بازدهارها التجاري مثلت مركز منافسة لمدينة حلب بشمال الشام ، لأدركنا أن ضمها مثل أهمية كبيرة للدولة النورية .و بالإضافة إلي ذلك ، فإن وقوع أنطاكية في الحوض الأدنى من نهر العاصي [٢] ، قد جعل لها أهمية خاصة من حيث الناحية الزراعية ، و خصوبة تربتها ، إلي الحد الذي جعل البعض يصفها بأنها من أخصب المناطق بعد دمشق [٣] ، في كافة أنحاء بلاد الشام ، وحيث إن توسعات الدولة النورية سارت نحو السهول الفيضية ، وأنطبق ذلك علي أنهار النيل ،و بردى ،و غيرها ، فطبيعي أن يكون نهر العاصي ، ومدينته المزدهرة أنطاكية محلاً لاهتمام السياسة النورية ، خاصة ما عرف من ازدياد كثافة السكان بصفة عامة في مثل تلك السهول الفيضية .

كذلك احتلت إمارة طرابلس أهميتها الاقتصادية هي الأخرى ، إذ مثلت مخرجاً للتجارة الحلبية ، وكذلك العديد من المدن الشامية الداخلية مثل حمص ، ودمشق ، وحماه ، وغيرها [٤] ، زيادة علي ازدهار النشاط الزراعي بها ، أما الرها فإنها مثلت محطة تجارية للطرق المارة بشمال الجزيرة .

ويضاف إلي الأهمية الاقتصادية ، رغبة الدولة النورية في ضم مناطق جديدة إذ كانت تلك الإمارات تمثل مجالاً طبيعياً للتوسع النوري ، فمعلوم أنها كانت دولة داخلية ، ولم تملك موانئ علي ساحل شرق البحر المتوسط الذي خضعت موانيه

١- هايد ، تاريخ التجارة ، ص١٤٧ ، عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٣١.

Joannes phocas, Abrief description of the castles and cities from The city of Antioch even unto Jerusalem" .Trans. by A.stewart, PPTS,vol.ll,london1894,p.6.

أيضا : فاميري ، أنطاكية القدية ، ت . إبراهيم نصحي ،ط. القاهرة ١٩٦٧م ، الخريطة التوضيحية .

٣- أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٥٧.

٤- نعيم زكي ،طرق التجارة الدولية ، ص ١٥١.

للسيادة الصليبية منذ العهد الباكر للاحتلال الصليبي للمنطقة ، وطبيعي ، و الأمر كذلك أن تسعي إلي الحصول علي أحد الموانئ التجارية الحيوية ، ومن المرجح أنها بذلت قصارى جهدها من أجل السيطرة علي ميناء السويدية (سان سيمون) ،و الذي كان ضمه إليها يؤثر في زيادة حركة الصادرات ، و الواردات في تلك المنطقة بين قارتي آسيا و أوروبا [١] ، خاصة أن مدينة حلب تعاملت تجارياً مع ميناء السويدية ، و لا ريب في أن التجار الحلبيين أدركوا أهميته الكبيرة [٢].

و علي الرغم من ذلك ، فإن القوى الكبرى في المنطقة لا سيما الإمبراطورية البيزنطية ،و مملكة بيت المقدس ، ما كانتا لتقبلا توسع نور الدين علي نحو يهدد مصالحها التجارية في المنطقة ، وكانت حريصة علي أن تظل الدولة النورية دولة داخلية دون منافذ بحرية علي ساحل شرق البحر المتوسط ، من أجل أن تنعم تلك القوى بفوائد دورها كوسيط تجاري بين تلك الدولة ،و مصادر توزيع تجارتها في القارة الأوروبية .لقد تمكنت الدولة النورية في مرحلة من مراحل الصراع مع إمارة أنطاكية من السيطرة علي السويدية ، و لكن نظراً لتدخل مملكة بيت المقدس لم تستمر سيطرتها ،و تهاونت مع الصليبيين و انسحبت من الميناء الحيوي البالغ الأهمية .

أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية ، فكانت علي جانب كبير من الأهمية ،و يمكن أن تدركها من خلال تناول أهمية موقع الإمارات الصليبية نفسها ، فقد وقعت انطاكية شمال غرب بلاد الشام في الحوض الأدنى لنهر العاصي ، وقاربت حلب مركز الدولة النورية التجاري ، و السياسي ، أما الرها فإنها واجهت الموصل بشمال العراق ، وسيطرت بموقعها في اعلى الفرات علي الخط الدفاعي بين حلب ، و الموصل ، ومثلت مركزاً تمكن الصليبيون من خلاله من دعم الاتصال بالمسيحيين في جورجيا ، و عزل الأتراك في الأناضول عن بقية العالم الإسلامي [٣] كذلك كانت إمارة

١- نعيم زكي ،طرق التجارة الدولية ، ص١٥١.

٢- الحويري ، الأوضاع الحضارية ، ص ١٣٠ .

٣- عن موقع الرها أنظر :

Eucherius, Description of Jerusalem ,Trans.by A.stewart,PPTs ,vol.ll,London 1892,p.19,Sivia of Aquitania, pilgrimageto the Holy places, Trans by A.stewart , PPTS,vol .ll,London 1892,p.34-35.

كذلك كانت إمارة الرها بمثابة دولة حاجزة في مواجهة المسلمين ، وكان عليها أن تواجه أولي الهجمات الإسلامية علي الكيان الصليبي [1] . أما إمارة طرابلس فإنها مثلت الامتداد الشمالي لمملكة بيت المقدس بحدودها الفلسطينية ، وحدها من الغرب البحر المتوسط ،و من الشرق الدولة النورية ، و من الشمال إمارة انطاكية .

لقد كانت مواقع الإمارات الصليبية علي جانب كبير من الأهمية الاستراتيجية ، بحيث شكلت تهديداً لحدود الدولة النورية ، و يلاحظ أن من دوافع نور الدين محمود للاتجاه صوب أنطاكية ، التي تاخمت حدودها حدود الدولة النورية الشمالية ، ويبدو أنه أدرك أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ،و لذا فإنه بادر بتوجيه الهجمات العسكرية إليها .

أما إمارة الرها فإن الدولة النورية أرادت أن تؤكد علي النجاح العسكري الذي حققه من قبل الأتابك عماد الدين زنكي بإخضاعها عام ١١٤٤م خوفاً من وجود قوة صليبية علي حدودها الشمالية الشرقية الأمر الذي من شأنه عرقلة اتصال شمال الشام بشمال العراق ، خاصة أن نور الدين كان يعلق آمالاً كباراً علي الدعم العباسي المالي و السياسي لدولته ، أما إمارة طرابلس فإن نور الدين هدف إلي وقف توسعها شرقاً علي حساب حدود دولته .

كذلك هدفت الدولة النورية من خلال توجهها عسكرياً نحو الإمارات الصليبية ، خلق جبهة شمالية ضد الكيان الصليبي في بلاد الشام ، يتم من خلالها الضغط العسكري عليه لوقف توسعاته في مصر عندما وقع التسابق عليها من جانب الملك عموري الأول و نور الدين محمود ، وقد أثمرت مجهودات الأخير في هذا المجال ؛ إذ أدي انتصاره في حارم عام ١١٦٣م إلي إسراع الملك الصليبي بالعودة إلي الشام لمواجهة الموقف المتدهور هناك .

= ياقوت ، معجم البلدان ،ط. لبيسك ،جـ٣ ،ص ٨٧٦؛ أبو الفداء ، تقويم البلدان ،ص ٢٧٦- ٢٧٧ ؛ ابن شاهين ، زبدة الحلب كشف الممالك ،ص ٥١ ،يوسف بغدادي ، " الرها " المشرق ، العدد (٤) ، السنة (٨) لعام ١٩٠٥م، ص ١٧١ ، زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطي ،ط. القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٩١.

Riley- Smith, The Knights of st.p.28.

1- kerr, The Crusades, New York 1964,p.41.

2- Vasiliev,Hist. The pyzantine emire, Madison 1929,vol.ll,p.69.

أما سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية ؛ فنجد أن إمارة الرها قد أسقطها من قبل عماد الدين زنكي عام ١١٤٤م [١] ، وقد لاذ أميرها جوسلين الثاني بالفرار و استقر في تل باشر ، ولم يكن له نفس شخصية والده القوية الطموحة ، بل أنه انصرف إلي حياة المجون و الترف علي نحو كان عاملاً مؤثراً في أسره علي أيدي قوات نور الدين .

وقد حاول جوسلين الثاني استرداد إمارته المفقودة في عام ١١٤٧م و ذلك بعد مقتل زنكي ،بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها [٢] ، وأمكنه عبور نهر الفرات في أكتوبر ١١٤٧م ، وساعده الأرمن علي فتح أبوابها و الاستيلاء عليها [٣] ، وإن عجز عن قلعتها [٤] ، نظراً لمناعتها و تجهيزاتها بالمعدات و الرجال ، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها [٥] .

أمام ذلك الموقف ؛ هب نور الدين إلي إنقاذ الرها ، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار [٦] ، وقد تمكن الجيش النوري من إلحاق الهزيمة بالصليبيين ، وأصيب جوسلين نفسه ‘

١- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ؛ ابن الأثير ، الباهر ،ص ٦٨ ، عليه الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية ، ص ٣١٦- ص٢١٧.

Gibb,zengi and the Fall Edessa, insetton ,The Crusades, ol.I,p.461,Rohricht,Beitrage,vol.II,p.57.

٢- سبط الجوزي ،مرآة الزمان ،جـ٨، ق١ ، ص ١٩١ ؛ ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ٢٩٠ ؛ ابن خلدون ، العبر ،جـ٥ ، ص٢٣٨ ؛ النويري ، نهاية الأرب ،جـ٢٧، ص١٥٢.

3- William of Tyre,vol.II,p. 158.

4- William of Tyre,vol.II,p. 158.

ابن العديم ، المصدر السابق ،جـ٢ ،ص٢٩٠.

Rohricht,Beitrage ,p.313.

5-William of Tyre,vol.II,p158.

عن محاولة جوسلين الثاني أنظر :

براور ، عالم الصليبيين ، ت قاسم و خليفة ،ط. القاهرة ١٩٨١م،ص٦٩.

٦- ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٨؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكي ، ص ١٣٦.

وقتل فيمن قتل بلدوين صاحب مرعش [١] ، وقام الأول بعبور الفرات مسرعاً حتي بلغ سميساط ،و فر من كان معه في اتجاهات متفرقة [٢] ، وقامت النورية بسلب المدينة ،و نهبها ، كعقاب لأهلها علي تمردهم ،و غنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة [٣] .

ووجدت لدي نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلي الإسراع نحو القضاء علي محاولة جوسلين الثاني استرداد الرها ،إذ أنه أراد إنقاذ الإنجاز الكبير الذي حققه والده زنكي بإخضاع أولي الإمارات الصليبية ، وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم استراتيجية كبرى ، كذلك أراد أن يوقف أية توسعات صليبية في المنطقة الممتدة من شمال العراق ، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للرها ، كان من شأنه توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجي القائم بين المدينتين ، والذي حرص نور الدين علي عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة .

و يلاحظ أن إسراع نور الدين بمواجهة الموقف المتدهور في الرها – علي الرغم من أنها لم تكن ضمن أملاكه وفقاً لاتفاق الخابور مع أخيه سيف الدين غازي – دل علي إدراكه لكافة العوامل و الاعتبارات السابقة .

و لا ريب في أن محاولة الصليبيين الاستيلاء علي الرها ، قد زادت من إدراك نور الدين لأهميتها في الصراع الإسلامي – الصليبي و أهمية زيادة دفاعاتها لمواجهة الأطماع الصليبية .

كذلك وقع صدام حربي بين نور الدين و جوسلين الثاني ، عندما حاول الاستيلاء علي أملاكه الصليبية ، وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بنور الدين عام ١١٥٠م [٤] و أسر بعضاً من قادة الجيش النوري ، ويلاحظ أن المصادر الرسمية العربية لا تقدم

1- Anonymous Syriac chronicle ,p.297.

2- William of Tyre,vol.II,p. 141.

3-Anonymous Syriac chronicle ,p161.

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٨؛ ابن عساكر ، ترجمة محمود زنكي ،ص ١٣٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص ٤٦.

٤- ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٤ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٧ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ،ص ٣٠١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ،ص ١٢٣ ؛ النويري ، نهاية الأرب ،جـ٢٧، ص١٥٦ – ١٥٧.

إشارات كافية عن هذه الهزيمة علي نحو يدعو للاعتقاد بأنها كانت فادحة .

أدرك نور الدين من خلال تلك الأحداث ضرورة حرمان الصليبيين من قيادة جوسلين الثاني بأن سعى إلي أسره ، وبالفعل تمكن من ذلك في نفس العام [١] ، وسمل عينيه ، و أودعه السجن ، وأمضى فيه نحو تسعة أعوام حيث أدركته منيته عام ١١٥٩م [٢] ، وعد أسره من الأحداث الهامة في صراع نور الدين مع الإمارات الصليبية ، حيث عرفت عنه البسالة في قتال المسلمين ، و كانت النتيجة المباشرة لأسره هي سقوط أملاكه مثل تل باشر ، وعين تاب و إعزاز ، وتل خالد ، وقورس ، والروانداان ، وبرج الرصاص ، ودلوك ، ومرعش ، وغيرها من الأملاك [٣] – سقطها في قبضة الجيش النوري .وقد اختلف المؤرخون في تحديد المدة الزمنية التي استغرقها إسقاط

١- اختلفت المصادر والمراجع بشأن أسر جوسلين الثاني ، فهناك من ذكر أن ذلك حدث عام ١١٤٩م و من أصحاب ذلك الرأي سبط بن الجوزي ،مرآة الزمان ،جـ٨ق١ ، ص ٢٠٢ ؛ ابن أيبك الدو داري ، الدرة المضيئة ،ص٥٥ ، واليسيف ، Elisseeff,Nur Ad- Din ,I,p.453-454.

و هناك اتجاه آخر يري ذلك عام ١١٥٠م ، وهو الأرجح في تقديري وقد وجد تأييداً من المؤرخين المعاصرين مثل ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٠ ؛ العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧ ، و كذلك ابن الأثير ، الكامل ،جـ٨، ص ٦٢ –ص٦٣ ؛ ابن العديم ، المصدر الأسبق ،جـ٢، ص ٣٠٢ ؛ ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٣٦- ص١٣٧ ، وتأييد المؤرخين المعاصرين لتاريخ ١١٥٠م تجعلنا نؤيده ، وقد أيده بعض المؤرخين المحدثين و حددوه بصورة أدق هي ٥ مايو ١١٥٠م أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية ،جـ٢ ، ص ٦٤٢ ، عمران ، السياسة الشرقية ،ص ١٧٩.

Stevenson , The Grusaders in East,p.167.

وعن أسره AnonymousSyriac chromicle,301.

- William of Tyre,vol.II,p. 201.

ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٣٠١.

٢- و عن موته بعد سنوات الأسر أنظر :

- William of Tyre,vol.II,p. 201. not (26), Stevenson , The Grusaders in East,p.181.

٣- ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ،ص٣٠٢ – ص٣٠٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ، ص١٢٤ ؛ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٢٠٢؛ ابن الشحنة ، روضة المناظر ،ص ٥٥٠ ؛ النويري ، نهاية الأرب ،جـ٢٧ ، ص ١٥٧.

قد اختلف المؤرخون في تحديد المدة الزمنية التي استغرقها إسقاط قلاع ،و حصون ، وأملاك جوسلين الثاني ، فذكر البعض أن ذلك حدث في أيام يسيرة [١] ، بينما تصور الآخرون أنه حدث خلال عام [٢] ، وقرر ابن الوردي أنها مدة يسيرة[٣] ، ولكن اعتماداً علي نص صريح لابن العديم أمكن الاعتقاد أن ذلك استغرق عدة سنوات ربما بلغت الخمس ، ويقول " في ثامن عشر ربيع الأول سنة خمس و أربعين ،و خمسمائة فتح تل باشر، و تل خالد ،وفتح عين ثاب سنة خمسين ، وفتح قورس ،و الراوندان ،و برج الرصاص [٤] ... " و مما يدعم هذا أن المصادر المعاصرة مثل ابن القلانسي ، و العماد الأصفهاني ، لا يبرز إلا سقوط عزاز عام ١١٥٠م [٥] مما يدل علي أن القلاع ،و المناطق الأخرى سقطت بعد ذلك ، ثم أن دلوك مثلاً استولي نور الدين عام ١١٥٢م [٦] .

و جدير بالملاحظة ، تناول دوافع نور الدين للاستيلاء علي كافة الحصون ،و القلاع ، فقد رغب في تأمين خطوط التجارة بين حلب و الموصل كذلك بين حلب ،و دولة سلاجقة الروم ، و الإمبراطورية البيزنطية ، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهميته الكبيرة إذ أنها – علي ما يبدو – فرضت نوعاً من السيطرة علي حركة التجارة بين شرق الفرات ،و غربه ، و بالذات في الجزء الشمالي لبلاد الشام ، أما الدوافع الاستراتيجية العسكرية فتمثلت في رغبة نور الدين الأكيدة في تأمين الخط الدفاعي الحربي الواقع بين الموصل و حلب ، إذ أن خضوع تلك القلاع و الحصون في أيدي الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاملاً .

هكذا نجد أن سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة الرها ، تمثلت في القضاء علي محاولة أميرها السابق استردادها ، ثم اتجاهه إلي أسره و إسقاط أملاكه ، وطبيعي أن ندرك أن دوره فيهذا المجال كان المحافظة علي ما أمكن إنجازه في عهد والده ، والقضاء علي المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني ، ويلاحظ أنه جهوده

١- كرد علي ، خطط الشام ، جـ٢ ، ص٣٧.

2- Stevenson,op.cit,p.148.

٣- تتمة المختصر ،ص ٥٠.

٤- ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢، ص٣٠٢-ص٣٠٣.

٥- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٠ ؛ العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ،ص٢٠٧.

٦- ابن واصل ، مفرج الكروب،جـ١ ،ص١٢٥.

الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني ، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن علي ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة انطاكية مثلاً ، نظراً لانتهاء قوة إمارة الرها الصليبية الفعلية في عهد والده .

أما إمارة أنطاكية فقد تولي حكمها خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء ، ريموند Raymond de Poitiers دي بواتييه [١] ١١٣٦- ١١٤٩ م ، و قد اتجه إلي محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية ، عندما قدمت إلي الشام من أجل مساعدته في استرداد أملاكه المفقودة شرق نهر العاصي .

أما رينودي شاتيون Reynaldo de Chatillion [٢] أو أرناط في المصادر العربية ١١٥٣- ١١٦٢م فقد شن هجماته علي الأعمال الحلبية ، ووصف بالاندفاع ،و التهور ، وجرت تصرفاته علي الصليبيين في بلاد الشام بصفة عامة أوخم العواقب ، وقد عمل نور الدين علي أسره ، وتمكن بالفعل من ذلك ، و مكث في السجن سبعة عشر عاماً خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة .

و تولي بوهيمند الثالث Bohemond III ١١٦٣- ١٢٠٠م عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملة ريموند دي بوانيه ، ويلاحظ أنه أسر في معركة حارم عام ١١٦٤م .

1- Rey, " Resume chronologique de L,histoire des d,Antioche",ROL, IV,Annee 1896,pp.358-348.

٢-عنه أنظر William ofTyre , vol .ii ,pp.248- 414 .

OTTO of St. Blasion , The Third Crusade frome the chronicle of OTTO of St.Blasion in thatcher ,source book medieval History ,New York 1903,p.529-530.

مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ،ط. الإسكندرية ١٩٥٨م ، ص ١٠٥ ؛ ابن أيبك الدو داري ، و التيجان و غرر تواريخ الزمان ، ورقة (٤٩٨) ك السلامي ، مختصر التواريخ ، ورقة (٥٨) , Schlumberger

Renauld de chatillon prince di Antioche ,paris 1933.

و أيضا ، محمود رزق محمود ، العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك و صلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين ١١٨٧م ن رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة عين شمس ، لعام ١٩٧٧م علي احمد السيد الخليل و الحرم الإبراهيمي عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ،ط. القاهرة ١٩٩٨م ، ص ٢٢٧- ٢٣٤.

أما سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة انطاكية ؛ فقد امتازت بتعدد المعارك الكبيرة التي خاضها ضدها . علي نحو لم نجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى .

فعندما كان نور الدين في حلب بعد تأسيس دولته ، تولي حكم أنطاكية الأمير الصليبي ريموند دي بواتيه ١١٣٦- ١١٤٩م ،و قد أدرك أن سقوط إمارة الرها في قبضة المسلمين في عهد الأتابك زنكي سيتلوه بالضرورة إحداق الخطر بإمارته ، لذا اغتنم فرصة مقتله فهاجم أملاك حلب ، و عندما قدمت الحملة الصليبية الثانية إلي بلاد الشام حاول أن يوجهها إلي مهاجمتها [١] ، ليقضي علي خطرها نهائياً ، غير أن ذلك لم يحدث ، وتوجهت الحملة صوب دمشق تاركة إمارة أنطاكية تواجه صراعاتها مع نور الدين .و قد بلغ العداء مع تلك الإمارة ذروته عندما وقعت معركة يغري [٢] في نوفمبر ١١٤٨م ، وإن أختلف المؤرخون بشأنها من حيث انتصار الصليبيين [٣] ، أو هزيمتهم [٤] ، وذهب البعض إلي القول بأن المعركة وقعت في مرحلتين ، مرحلة حالف النصر الجيش النوري ، ومرحلة أخري مُنِي فيها بالهزيمة ، وفي تقديره أن المصادر العربية أغفلت الهزيمة و أبرزت انتصاره [٥] .

1- William ofTyre,vol.II,p. Ellisseeff, Orient

Musulman,p.245.

حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢١٠ ، العريني ، الشرق الأوسط ،ص ٦٢٥ ،مسفر الخالدي ، الجهاد ضد الصليبيين ،ص ٢٤٥- ٢٤٦.

٢- وقعت يغري علي النهر المعروف باسمها حيث صب في بحيرة أنطاكية أنهار ثلاثة ، النهر الأسود إلي الغرب ، ثم نهر يغري في الوسط ، ونهر عفرين إلي الشرق ، ووقعت يغري إلي الشرق من دريساك في شمال أنطاكية ، عنها أنظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص٢٩٢ ، حاشية (٤) ، عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٨ ، حاشية

Stevenson ,The Crusaders,p.165.

٣- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ،ص ٣٠٢- ٣٠٣.

AnonymousSyriac chromicle.p300.

٤- ابن العديم ، المصدر السابق ،جـ٢ ،ص ٢٩٢؛ ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص ٥٥؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ،ص ١١٤ ؛ ابن الوردي تتمة المختصر ، ص ٤٨ ؛ النويري ، نهاية الأرب ،جـ٢٧ ، ص ١٥٤ ، أيضاً : حسين عطية، إمارة انطاكية الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٨١م ، ص ٢٣٣.

٥- حسن حبشي ، نور الدين و الصليبيين ، ص ٧٩.

و أغلب الاحتمال أن النصر حالف نور الدين في النهاية ، فقد أكدت المصادر إرسال الغنائم و الأسري إلي إخوته ، وإلي الخليفة العباسي [١] ، ومن المستبعد تماماً قيامه بذلك في حالة هزيمته ، كذلك فإن نور الدين عمل علي استغلال انتصاره فعمل علي الاستيلاء علي حصن حارم[٢] و ارتاح .

و استمر الصراع بين حلب ،و أنطاكية فجرت وقائع معركة أنب [٣] في يونيو ١١٤٩م ،ووقعت في منطقة سهلية علي نحو أدي إلي حدوث معركة كبيرة هزم فيها الصليبيون ، وقتل فيها ريموند دي بواتيه و عدد من كبار قادة الصليبيين [٤] ، ومن الملاحظ أن نور الدين تلقي دعماً عسكرياً من جانب دمشق ، وإن وقفت الإسماعيلية النزارية إلي جانب الصليبيين ، ولقي قائدهم علي بن وفا مصرعه علي نحو عكس أنه في سبيل المصالح السياسة العليا أرتمى الإسماعيلية في أحضان الصليبيين ضد القيادة السنية المجاهدة [٥] .

١- ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص ٥٥ .

٢- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٢ ، عاشور ، الحركة الصليبية جـ٢ ،٦٣٧.

٣- وقعت أنب ضمن أعمال عزاز في شمال الشام ، عنها أنظر :

كرد علي ، خطط الشام ،جـ٢ ،ص ٢٣ ، وأورد حسين مؤنس التسمية علي أنها أناب و هي تسمية لم ترد في أي من المصادر العربية المعاصرة أو اللاحقة علي هذا النحو ، حسين مؤنس ، صور من البطولة، ص ١٧٣و لعل ذلك خطأ مطبعي .

٤- عن تفاصيلها أنظر :

.AnonymousSyriac chromicle.p300

ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤؛ العماد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٧؛ ابن الأثير، الباهر ، ص ٩٨ – ص٩٩ ؛ الكامل ،جـ١١ ، ص ٥٨-ص ٥٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١، ص١٢٠-ص١٢١.

Elisseeff,Nur Al- Din ,T.ll,pp.430-432,Gibb,The career of Nur Al-Din,p.515 Stevson,The Crusaders,p.165.

أنتوني بردج ، الحروب الصليبية ، ت سبانو و زميله ،ط. دمشق ١٩٨٥ ، ص ١٥٩ ، العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق و المغرب ،ط. تونس ١٩٥٤م ن ص ٤٨.

٥- ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ،ص٢٩٨- ص ٢٩٩.

و بعد انتصار أنب ، من أهم انتصارات نور الدين محمود خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه ، ويعده البعض نقطة تحول في صراعه مع الصليبيين ، وقد اكسبه انتصاره صيتاً كبيراً في العالم الإسلامي .

و يلاحظ أن وقوع معركتين كبيرتين بين حلب و أنطاكية خلال ثمانية شهور فقط ، دل بوضوح علي احتدام الصراع بينهما و سعي نور الدين الأكيد إلي إضعاف الإمارة الصليبية التي مثلت أساسياً لشمال الشام . ودل ذلك من ناحية أخرى علي الكفاءة القتالية للجيش النوري ، الذي خاض غمار معركتين هامتين خلال تلك المرحلة القصيرة ، و خرج منها مظفراً .

و علي أثر مقتل ريموند دي بواتيه ، اضطربت الأوضاع السياسية في أنطاكية ، ويقرر وليم الصوري نفسه أن الفوضوي حلت بالإمارة ، واستولى الهلع علي كافة الناس ، وأن الأرض صارت ممهدة أمام قوات نور الدين ، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش ، وأمير البلاد ، ولم يعد هناك من يقوم بحماية قوية ضد الأخطار التي هددتهم [١] .

و طبيعي أن سعي نور الدين إلي الإفادة من انتصاره فعمل علي الاستيلاء علي عدد من الحصون الأنطاكية في كل الوادي الأوسط لنهر العاصي ، ومنها أرزمان ، وأنب ، وعم ، واجتاح سهل انطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون San Simeon)[٢] و بذلك قضي علي المراكز الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب و أنطاكية [٣] ، بل هدد أنطاكية نفسها و حاصرها [٤] .

1-- William of Tyre,vol.II,p. 199.

٢- حسين عطية ، إمارة انطاكية الصليبية ، ص ٢٣٥ ، العريني ، الشرق الأوسط ، ص ٥٧٦ ، عاشور ، الحركة الصليبية ،جـ٢ ، ص ٦٣٩ ،حسن حبشي ، نور الدين و الصليبيين ، ص ٨٣.

٣- عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ،ص ١٥٢،

وقد بالغ تيسير بن موسي فيحجم التوسعات الحربية عقب الانتصار في انب حيث ذكر أن نور الدين اندفع بقواته نحو انطاكية وتمكن من تحرير جميع المدن و القري المحيطة بها من الصليبيين ، أنظر :

تيسير بن موسي ، غزوات الإفرنج ، ص ١٤٧ ، ونتصور أن توسعاته شملت السهل الأوسط لنهر العاصي فقط علي ما هو مرجح

4- Elisseeff ,Nur Al- Din ,T.ll,p.432-433.

و اتفقت معه المدينة علي الاستسلام في حالة عدم مقدم الملك الصليبي بلدوين الثالث [1]، وبالفعل حضر ،وفرض حصاره علي حصن حارم ،و لما باء بالفشل ؛ عاد أدراجه إلي أنطاكية [2] ،و عقد هدنة مع نور الدين [3] .و من الملاحظ هنا أن سياق الأحداث الذي تقدمه المصادر العربية المعاصرة ، وكذلك اللاتينية يبدو غريباً ، إذ أنه بعد أن وصل نور الدين إلي ذلك الوضع المتميز نجده يتراجع ، إذ هزم الإمارة في معركة انب و قتل أمير أنطاكية ،و توغل في مناطقها حتى وصل إلي ميناء السويدية – علي نحو مثل إنجازاً كبيراً لم يحققه طوال صراعه مع الإمارة – بعد ذلك كله ارتضي بعقد هدنة مع الملك الصليبي بلدوين الثالث !! إن تعليل الموقف السابق – وكما أكدته المصادر العربية – هو الخوف من الخطر البيزنطي ، إذ أن بيزنطة لم تكن لتقبل بامتداد النفوذ النوري إلي ذلك المدى البعيد في سهل العاصي ، ويبدو – وهذا هو المهم – لم تكن لتقبل باستمرار السيطرة علي ميناء سان سيمون ،وحصول الدولة النورية ذات الطابع الجغرافي الداخلي علي ميناء هام لعمليات الاستيراد، و التصدير ، و لم يشأ أن يثير البيزنطيين علي نحو يجعلهم يزيدون من نفوذهم في شمال الشام علي نحو يهدد مركز دولته التجاري و السياسي إن مملكة بيت المقدس ،و كذلك الإمبراطورية البيزنطية ، ربما قبلتا بأن تتساقط بعض القلاع التابعة لإمارة أنطاكية ، لكن أن يسيطر نور الدين علي مراكز اقتصادية بالغة الأهمية لحركة التجارة في تلك المنطقة الحيوية بين قارتي آسيا و أوروبا ، فهذا لم يكن مقبولاً منهما ، و هكذا لم نعد نسمع شيئاً في المصادر العربية أو اللاتينية عن استمرار النفوذ النوري في السويدية ، و أغلب الاحتمال أن القوات النورية انسحبت منه بناءً علي الهدنة الموقعة مع بلدوين الثالث .مهما يكن من أمر ، فقد عمل الجيش النوري علي الاستيلاء بعض المراكز الحصينة للإمارة فاستولي علي أفاميه عام ١١٤٩م [4] ، وتعد من أهم الحصون شرقي نهر العاصي ، وعد ذلك نقطة مهمة في سبيل غزو الإمارة فيما بعد [5]

١- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٥.

2- William of Tyre,vol.II,p. 300.

٣-حسين عطية ، إمارة انطاكية الصليبية ، ص ٢٣٦

4- William of Tyre,vol.II,p. 198 note(80)

فايد عاشور ،جهاد المسلمين ، ص٢١٠ العريني ، الشرق الأوسط ،ص٥٧٨.

5-Stevenson ,The Crusaders,p.165.

ومن وجهة أخري ؛ سعي نور الدين إلي اتباع نفس السياسة التي انتهجها مع إمارة الرها من قبل عندما أسر جوسلين الثاني ، إذ انه سعي إلي أسر رينودي شاتيون ، هو الفارس الصليبي ،و قد تولي حكم إمارة أنطاكية منذ عام ١١٥٣م [١] ، وتمكن المسلمون من أسره بفضل مساعدة التركمان [٢] ، وقدموه إلي مجد الدين بن الداية نائب نور الدين بحلب و طبيعي أن الهدف من وراء ذلك كان إحداث أكبر قدر من الفوضوي في الإمارة في أعقاب أسر أميرها ، و قد خشي الملك الصليبي بلدوين الثالث من تدخل الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين في شؤون الإمارة بعد أسر أميرها ، خاصة أن بوهيمند الثالث – الذي تولي بعده- كان صغير السن ، ولذا فقد قدم إليها، و جعل الوصاية علي عرش الإمارة في يدي البطريرك إيمري ليمجوس [٣] ، و كان من الممكن لنور الدين حينذاك التقدم صوبها لإسقاطه ، و لكن حال دون ذلك ذات الاعتبارات التي عاقته عام ١١٤٩م .

1- Rey, Resume Chronologique de L; Histoire des primces d;Antioche,p.348.

2- Anonymous Syriac chronicle,p.303, William of Tyre,vol.II,p.283-284.

و يوجد خلاف بين المؤرخين بشان تحديد تاريخ أسر أرناط فهناك من جعله عام ١١٦٠م مثل ستيفنسن ورنسيمان

-Stevenson ,The Crusaders,p.183,note (2) ,Runciman,vol,ll,p.337.

و أيضا، العريني ، الشرق الأوسط ، ص ٦١٩- ص ٦٩٠ ، حسن عطية ، إمارة أنطاكية الصليبية ، ص ٢٥٨ ، ويوجد من تصور ذلك عام ١١٦١م مسفر الخالدي ، الجهاد ضد الصليبيين ، ص ٢٦٧- ٢٦٨، أما المصادر السريانية فنجد أن المؤرخ السرياني المجهول يقرر أن ذلك وقع عام ١١٥٧م .

Anonymous Syriac chronicle,p.303.

أما المصادر اللاتينية مثل، وليم الصوري، فيذكر أن أسره تم في العام الثامن عشر من حكم بلدوين الثالث William of Tyre,vol.II,p.284-285. ولما كان بلدوين الثالث قد تولي الحكم عام ١١٤٤م اعتماداً علي دراسة العملة الصليبية ، أنظر:

رأفت النبراوي ، المسكوكات الصليبية في مصر و الشام ، رسالةماجستير غير منشورة – كلية الآثار - جامعة القاهرة لعام ١٩٨٠م ، ص ١٠٦ و بالتالي يكون أسر ارناط تم حوالي عام ١١٦٢م .

3- William of Tyre,vol.II,p.287-288.

و تطور الصراع بين الدولة النورية ، و إمارة أنطاكية تطوراً خطيراً في صورة معركة حارم ١١٦٣م [١]، التي اشتركت فيها العديد من القوى المواجهة لنور الدين ، منها الصليبية ، والبيزنطية ، والأرمنية .

أما اشتراك القوى الصليبية ، فذلك مرجعه إلي رغبتها في تحجيم خطر نور الدين ، الذي تزايد من خلال هجماته علي إمارة أنطاكية ، وسعت الإمبراطورية البيزنطية إلي المشاركة في مواجهة نور الدين ، نظراً لارتباطاتها الأصيلة بأنطاكية ، من قبل الغزو الصليبي في أواخر القرن الحادي عشر م ، وأراد الأرمن هم أيضاً جني ثمار مشاركتهم في المعركة في حالة الظفر .

وقد أغتنم نور الدين محمود فرصة غياب الملك عموري الأول في مصر لتنفيذ مشروعه الصليبي هناك وهاجم إمارة انطاكية [٢] ، وطبيعي أنها حرمت من العون العسكري الكبير الذي كان من الممكن أن يقدمه لها ، و يقال – وفقاً لواية ابن عساكر ، و غيره – إن عدد القوات المتحالفة بلغ ثلاثين ألفاً [٣] – و علي الرغم من إدراكنا لطابع المبالغة العددية الذي اعتادته المصادر حينذاك - ، وتلقي نور الدين دعماً كبيراً

١- وقعت حارم ضمن إمارة أنطاكية علي بعد عشرة أميال شرقها ، وهي حالياً من مناطق محافظة إدلب شمال سوريا ، وتبعد مسافة ٥٣ ك.م٢ عنها انظر :

William of Tyre,vol.II,p.306-308 Jacque de vitry ,Hist of Jerusalem,Trans by Stewart, PPTS,vol Xl,London 1896,p.94.

عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٨٥ ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ،جـ١ ،ص٢٣١.

عن معركة حارم أنظر بالتفصيل : William of Tyre,vol.II,p. 306-308 Anonymous Syriac chronicle,p.303 Jacque de viry,p.94.

ابن الأثير ، الباهر ،ص ١٢٤ ؛ الأصفهاني ، البستان الجامع ،ص١٣٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،جـ٢ ، ص ٣٢٩-ص٢٤١- ص٣٤٢ ؛ العدوي ، الزيارات ، تحقيق المنجد ،ط. دمشق ١٩٥٦م ،ص ٤٠ ،عمران ، " معركة حارم " ،مجلة المؤرخ العربي ، العدد (٨) لعام ١٩٧٧م ،ص ٩٠-ص١١٢.

2- Jacque de viry,p.94.

٣- ترجمة محود بن زنكي ، ص ١٣٨.

دعماً كبيراً من المناطق المجاورة ، خاصة من أخويه نصرة الدين ، وقطب الدين ، وكذلك من زين الدين كوجك حاكم أربيل ، و حاكم سنجار ، وابن عم مجد الدين ، وسيف الدين و سيف الدين صاحب منبج [١] ، وقد كلل جهد الجيش النوري بالنجاح ، وأنزل هزيمة كبيرة بالقوات المعادية ، وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف [٢] ، ويقال أن الأسرى بلغوا ستة آلاف من كبارهم [٣] ، ومن بينهم أمير أنطاكية بوهيمند الثالث ، وأمير طرابلس ريموند الثالث ، وأمير كيليكيا البيزنطي قسطنطين كارلومان ، وهيو دي لوزينيان [٤] ، بينما فر تورس الأرميني من ساحة القتال عندما أيقن تفوق المسلمين ، ولم ينصت الصليبيون إلي نصحه لهم بانتظار مقدم الملك عموري من مصر [٥].

و ينبغي أن نلاحظ احتمال المبالغة في أعداد قتلي الصليبيين في معركة حارم بالذات ، فابن الأثير – ربيب الزنكيين - و الذي قدم مادة تاريخية مفصلة عن معركة أشار إلي آلاف القتلى ، ويبدو ، أنه أراد أن يصور المعركة علي أنها بضخامة معركة حطين عام ١١٨٧م ، ومن المحتمل أن عداءه لصلاح الدين جعله يصور معركة حارم تصويراً مبالغاً فيه يحوي طابع تمجيد لنور الدين ، ويلاحظ أن كافة المؤرخين المتأخرين قد نقلوا عنه أحداث المعركة و خسائر الصليبيين .

1-: Anonymous Syria chronicle,p.303.

ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ،ص ١٤٣ ؛ ابن كثير ، البداية و النهاية ،جـ١٢ ،ص٢٤٨.

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب ،جت٢ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ،جـ١ ،ص ١٤٥ ، الذهبي ، دول الإسلام ،ص ٧٤.

٣- سبط ابن الجوزي ،مرآة الزمان ،جـ٨/ ق١ ،ص ٢٤٧ ؛ أبو الفداء ، المختصر ،م (٢) ،جـ (٥) ، ص ٥٦.

4-Anonymous Syria chronicle,p.304 William of Tyre,vol.II,p.

العماد الأصفهاني ، سنا البرق الشامي ، ص ١٩ ،أبو شامة الروضتين ،ق ١ /جـ٢ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب ،جـ١ ،ص ١٤٥ ؛ الذهبي ، العبر،جـ٤ ، ص ١٦٧ ؛ الحويري، الإعلام و التبين ، ص ٧٨ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،جـ٤ ،ص ١٨٦.

5-Anonymous Syria chronicle,p.304 William of Tyre,vol.II,p. 308.

ولا مراء في أن موقعة حارم أثرت علي نطاق متسع علي العلاقات النورية – الأنطاكية ؛ فقد مثلت انتصاراً لنور الدين ضد الوجود الصليبي في شمال الشام ، وفقدت الإمارة الكثير من فرسانها بين قتيل وجريح ، و سلبتها قيادات فعالة ، و حق لكلود كاهن أن يصفها بأنها كارثة [١] ، وقد حقق نور الدين من جرائها العديد من المكاسب ؛ إذا استولي علي حارم [٢] ، و عمل علي الإغارة علي مناطق أنطاكية ، بعد أن أيقن عدم وجود مقاومة حقيقية ضده ، و بلغت قواته اللاذقية ، وسعي إلي اكتساب مغانم وفيرة من أعدائه [٣] ، وانتهز فرصة غياب عموري في مصر واستولي علي بانياس بعد ذلك بشهرين [٤] . علي نحو عكس تزايد فعالياته خلال تلك المرحلة الزمنية القصيرة . و مع ذلك ؛ فينبغي ألا نقبل المبالغة بشأن نتائج معركة حارم ، إذ أنها لم تحدث تغييراً كبيراً علي خريطة منطقة شمال الشام ، ولم تؤد إلي إخضاع إمارة أنطاكية لسيادة الدولة النورية إذ أن الإمبراطورية البيزنطية وقفت كقوة عسكرية ، و سياسية كبرى لتحول دون تحقيق ذلك ،و هكذا أدت حارم في الحقيقة إلي مكاسب جزئية ، لا تتفق مع حجم ما صورته المصادر عن ضخامة خسائر الصليبيين فيها .

ومن جهة أخرى ؛ اتجه نور الدين إلي إطلاق سراح خصمه بوهيمند الثالث أمير أنطاكية [٥] عام ١١٦٥ م ، و ربما كان دافعه إلي ذلك أنه أدرك محدودية كفاءته الحربية ، و لم يجد خطراً كبيراً من عودته ليحكم إمارته من جديد ، وقد خشي ظهور أمير آخر أكثر كفاءة و تمرساً بالجوانب العسكرية ، والسياسية ؛ علي نحو يجلب المصاعب علي الدولة . النورية ، ومن المحتمل أنه أدرك خطورة حدوث ضغط

Cohen ,Lasyrie nord,p.204.

يقول عنها : Le desatre de Harim"

2- William of Tyre,vol.II,p. 308.

أبو شامة ، الروضتين ، ق١/جـ٢ نص٣٢٠ ؛ ابن واصل ،مفرج الكروب ،جـ١ ، ص ١٤٥؛ الحويري الإعلام و التبين ،ص ٧٨.
٣-ابن الأثير ، الباهر ،ص ١٢٥؛ ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ٣٢٠.

4- William of Tyre,vol.II,p. 308-310.

ابن العديم ، المصدر السابق ،ص ٣٢١.

5- William of Tyre,vol.II,p. 311.

صليبي أو بيزنطي لإطلاق سراحه ، فرغب في المبادرة بالقيام بذلك بدلاً من أن يضطر إليه علي نحو يضعف من مركزه السياسي أمام الأمراء المسلمين .

أما إمارة طرابلس فعاصر عهد نور الدين محمود أثنان من أمرائها ، ريموند الثاني ١١٣٧-١١٥١- ١١٥٢م ، وريموند الثالث ١١٨٧م ، وقد شهد عهد ريموند الثاني اعتماد الإمارة علي عناصر الاسبتارية ، في الدفاع عن حصن بالغ الأهمية هو حصن الأكراد [١] عام ١١٤٢م ، وقد أغتاله عناصر الإسماعيلية النزارية عام ١١٥٢م .

و فيما يتعلق بريموند الثالث ؛ فقد حكم الإمارة ، وهو لا يزال طفلاً صغيراً في الحادية عشر من عمره ، فتولت الوصاية عليه أمه هوديرن وقام الملك الصليبي بلدوين الثالث بتنظيم أمور الوصاية ، ويلاحظ أنه وقع أسيراً في معركة حارم السالفة الذكر أما سياسة الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس ، فقد اتسمت بصراع عنيف لإسقاط حصونها و قلاعها ، واحتلت تلك الإمارة أهمية متميزة لديها نظراً لتصريف التجارة الشامية عبر موانيها إلي عالم البحر المتوسط.

١- وقع حصن الأكراد علي بعد أربعين كم من مدينة حمص غرباً و قد تحكم في الممر الهام بين سهول نهر العاصي و البحر المتوسط ، وأشرف علي كل الإقليم الواقع بين أنطر طوس و طرابلس من ناحية وحمص من ناحية أخرى ، وقد عهد صالح بن مرداس لجماعة من الأكراد عام ١٠٣٣م بأمر الدفاع عنه ، وعندما احتل الصليبيون إمارة طرابلس خضع لسيطرتهم ، وقد استرده المسلمون في عهد السلطان الظاهر بيبرس عام ١٢٧١م عنه أنظر :-

ابن شداد الحلبي ، العلاق الخطيرة ،جـ٢ نص ١١٧،

Marino sanutos, secrets for true crusaders to help then to recover the Holy land trans . byA.stewart PPTS , vol Vll London 1896,p.5,Deschamps, Le crac des chevaliers,paris 1958.

مصطفي طلاس و محمد وليد الجلاد ، قلعة الحصن ، حصن الأكراد ،ط. دمشق ، مرفت محمد سالم ، حصن الأكراد و دوره في الصراع الصليبي- الإسلامي ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية .

و من ناحية أخري ، ساعدت الأحداث في بلاد الشام و تصارع القوى السياسية نور الدين علي تحقيق بعض أهدافه ، إذ انه خلال عام ١١٥١-١١٥٢م اغتيل ريموند الثاني أمير طرابلس علي أيدي عناصر الإسماعيلية النزارية [١] ، فسقط بذلك خصوم الدولة النورية من الصليبيين .

و يلاحظ هنا أن وليم الصوري لا يقدم صورة مفصلة للحادث أو دوافعه ،وإن أشار إلي أن عناصر الإسماعيلية النزارية تصارعت قبل الحادث مع بعض الأمراء التابعين لريموند الثاني ، ويبدو أن تعليل الموقف يكمن في صراع المصالح بين الفريقين نظراً لوقوع قلاع الدعوة الإسماعيلية الجديدة في مناطق إمارة طرابلس [٢] ، وحيث أن الاغتيال كان سلاح الإسماعيلية النزارية الرهيب الذي أشهرته في وجوه أعدائها ، فإن الأمير الصليبي لم يسلم منه .

و طبيعي أن نلاحظ أن الموقف كان بعيداً عن الدولة النورية ، ومن المستبعد تماماً أن يكون لها تورط في الأمر ، ولم تكن الإسماعيلية أداة تنفيذ لأهداف نور الدين إذ أنها نفسها كانت علي خلاف حاد معه ، و هددته عدة مرات ، ولو كان وراء تلك الحادثة لما تردد وليم الصوري من الإشارة إلي ذلك .

1-William of Tyre,vol.II,p. 204.

برنارد لويس ، الدعوة الإسماعيلية الجديدة ، ص ١٢٦ ، أسامة زكي ، الصليبيون و إسماعيلية الشام ، ص ٢٢٥ ، سالم ،طرابلس الشام ،ص ٢٧٦.

Lewis , The Assassins ,p.109, Margoliouth, the Assassins,p.140,Runcinman The Cru-sades , vol ,ll,p.333, Boase kingdoms and strongholds, p.108.

و يلاحظ أن هناك اختلافاً بين المؤرخين حول تحديد تاريخ اغتيال ريموند الثاني ؛ إذ لا يذكر وليم الصوري تحديد تاريخ الحادثة ، ولكن يبدو ان ذلك وقع بين عامي ١١٥١- ١١٥٢ إذ يذكر وليم الصوري الحادثة بعد إشارته لعودة بلدوين الثالث من شمال الشام و حيث أن عودته لم تقع قبل عام ١١٥٠ فطبيعي أن ذلك وقع بعد العام المذكور ، أنظر :

William of Tyre,vol.II,p. 214.stevenson ,the Crusaders, p.170,note (s)

٤- جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي في بلاد الشام ،ط. بيروت ١٩٨١م ، ص ٢٣٤.

مهما يكن من أمر ، فإن نور الدين اتجه إلي تركيز جهده ضد الإمارة في مهاجمة حصونها ، فهاجم حصن أنطر طوس عام ١١٥٣م ، وحصن يهمور ، وحشد القوات اللازمة للدفاع عنهما ، كما استولي في نفس العام علي حصن المرقب و هو من أمنع حصون الإمارة .

كذلك حدث صدام حربي عنيف بين نور الدين و إمارة طرابلس عند سفح حصن الأكراد – علي الأرجح - في عام ١١٦٢م ، وعرفت المعركة بالبقيعة ، وهزم فيها الجيش النوري هزيمة فادحة [١] ، بل أن نور الدين نفسه تمكن من الفرار بأعجوبة ، ويبدو أن عنصر المفاجأة لعب دوره في انتصار الصليبيين ، وقد كان من قادتهم جوفري مارتيل ،وهيودي لوزينان [٢] .

1- William of Tyre,vol.II,p306. Michel Le Syrien ,chronique edchabot,paris 1903.p.324.

ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ،ص ١١٩ ؛ الباهر ، ص ١٣٧- ١٣٨؛ سبط الجوزي ،جـ٨ / ق١، ص ٢٤٤؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ،ص ١٣٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ٣١٢- ٣١٤، عبد العزيز عبد الدايم ، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر م ، رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب- جامعة القاهرة لعام ١٩٧١م ، ص ٨٩.

Jean Richard La Comte de Tripoli la Dynastie Toulousaine paris 1945,p.21,

و قد اختلفت المصادر في التحديد الزمني للمعركة :

١١٤٩م ابن أيبك الدو داري ، الدرة المضيئة ، ص ٥٥٤.

١١٥٣ النويري ، نهاية الأرب ،جـ٢٧، ص ١٥٩.

١١٥٧ أبو الفداء ، المختصر ،م(٢) ،جـ(٥) ، ص٥٦.

١١٦١ الحويري ، الإعلام و التبيين ، ص ٧٧ . ١١٦٢م

ابن الأثير ، الباهر ، ص١١٧- ص١١٨، الكامل ،جـ١١ ،ص ١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ١٣٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ص ٣١٣ - ص ٣١٤و أغلب الاحتمال أن يكون ذلك قد حدث حوالي ١١٦٣م فابن الأثير - مؤرخ الزنكيين - يذكر ذلك ، كما أن وليم الصوري يذكر هذه الحادث مباشرة بعد معركة حارم ١١٦٤م مما يدل علي أنها وقعت حوالي ذلك التاريخ ، أنظر إشارة وليم الصوري :

William of Tyre,vol.II,p306,not(20).

2- William of Tyre,vol.II,p306.

وجيبرت دي لاسي مقدم فرسان الداوية ، ويبدو أن اشتراك عناصر الهيئات الدينية الحربية مثل الاسبتارية و الداوية ، قد لعب دوره في إلحاق الهزيمة بالجيش النوري في تلك المعركة ، و غيرها .

ولاشك في أن معركة البقيعة قد أحدثت بعض النتائج المهمة ، إذ أوضحت بعض القصور في تنظيمات الجيش النوري ، كذلك أوضحت تزايد اعتماد إمارة طرابلس علي عناصر الهيئات الدينية الحربية ، ثم فإنها زادت من تصميم نور الدين علي مواصلة سياسته في إسقاط قلاع و حصون الإمارة من أجل تجريدها من مصادر قوتها العسكرية .و هكذا ، اتجه الجيش النوري إلي الاستيلاء علي حصن المنيطرة في عام ١١٦٥م [١] ، وغنم الغنائم الوفيرة ، وفي العام التالي ١١٦٦م تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد [٢] ، وسلب الغنائم ، كذلك تم الاستيلاء علي حصن صافيتا [٣] ، و العيمة ، وهما من حصون الإمارة المنيعة ، ووقع صدام بين الجيش النوري، و جيش الإمارة عام ١١٦٩م فيما عرف بمعركة اللبوة [٤] ، وبعد عامين أي في عام ١١٧١م ، واصل نفس السياسة فتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة، واستولت

١- ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص ١٣٠ ؛ الباهر ، ص ١٣١؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ٣٢٢؛ ابن واصل مفرج الكروب ،جـ١ ، ص ١٤٨ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ،جـ٢ ، ص ٧٥ ؛ العبر ،جـ١ ، ص ٣٦٠؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرة ، ص ١٦٩ ؛ النويري ، نهاية الأرب ،جـ٢٧ ، ص ١٥٨ ؛ الحريري ، الإعلام و التبيين ، ص ٧٨.

وقد ذهب ابن شداد إلي القول بان ذلك حدث عام ١١٦٦م .

المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ولكن أمام إجماع المصادر الأخرى علي أن الاستيلاء علي حصن المنيطرة تم عام ١١٦٥فليس من اليسير موافقته ، ونجد أن ابن واصل علي الرغم من انه أشار إلي ما ذكره ابن شداد بشان تحديده بعام١١٦٦م إلا انه ذكر الواقعة ضمن حوادث عام ١١٦٥م ، انظر، ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ،١٤٨.

٢- ابن الأثير، الكامل ،جـ١١،ص ١٣٢ ؛ أبو شامة ، الروضتين ٣٧٤ ؛ الذهبي ،دول الإسلام جـ٢ ، ص ٧٥ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ص ١٥٩.

٣- وقعت صافيتا علي الطريق بين أنطر طوس و حصن الأكراد ، عنها ، ابن الشحنة ، الدر المنتخب ، ص ٢٦٧؛ أبو الفرج العش ، أثارنا في الإقليم السوري ، ص٩٧ ، لويس شيخو ، " جولة في الدولة العلوية " المشرق ، السنة (٢٢) لعام ١٩٤٤م ، ص ٤٩٠ .

٤- ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، جـ١٤٣.

عليه عام ١١٧١م [١] .

ويبدو أن الإغارات علي إمارة طرابلس خلال تلك المرحلة ، مثلت حملات للاستيلاء علي الغنائم الوفيرة ، وهذا ما ذكرته المصادر العربية علي نحو جلي تماماً ، ففي إسقاط المنيطرة " سبي غنيمة كبيرة " و كذلك في مهاجمته حصن الأكراد [٢] ، وفي عرقة " غنم الناس غنيمة عظيمة ".

إن تعليل حدوث عمليات السلب و النهب من جانب الجيش النوري ، في عمليات ضد إمارة طرابلس علي نحو خاص ، نجده في ثراء تلك الإمارة بالذات إذا ما قورنت بغيرها من الإمارات الصليبية وما احتوته من مناطق زراعية مزدهرة .

و هكذا مثلت سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة طرابلس رغبته في السيطرة علي مراكزها الحصينة ، وأدي صراعه عليها إلي إلحاق الهزيمة بالجيش النوري أحياناً .

وقد اختلفت سياسته تجاه إمارة أنطاكية عنها في طرابلس فبالنسبة للأولي اتسمت سياسته نحوها بالصراع المرير ، من أجل السيطرة علي وادي نهر العاصي ذو الأهمية الاقتصادية الكبيرة ، علي المستويين الزراعي و التجاري بحكم موقعه الحيوي ،ووقعت ثلاث معارك كبيرة هي يغري ، ونب ، وحارم ، واستهلكت جانباً كبيراً من جهد القوات النورية ، وأدي الصدام مع أنطاكية إلي دخول كيانات سياسية كبرى في الصراعات مثل مملكة بيت المقدس ، والإمبراطورية البيزنطية ، بينما نجد في إمارة طرابلس أن الصراع معها كان محدوداً ، ومتمثلاً في الرغبة في السيطرة علي قلاعها و حصونها ، وتكفلت الإمارة بقواتها العسكرية بمواجهة الغزو النوري لأراضيها ، ولم تحدث معارك كبري في طرابلس مثل تلك التي وجدت في مواجهة انطاكية . و من مظاهر اختلاف سياسة نور الدين تجاه كل من أنطاكية و طرابلس و نتائج كل منهما ، أن الجيوش النورية تمكنت من تهديد إمارة انطاكية تهديداً كاملاً نحو ثلاث مرات علي نحو استدعي تدخلاً من جانب مملكة بيت المقدس لحمايتها ولكن ذلك

١- ابن العديم ن زبدة الحلب ،جـ٢ ، ص ١٣٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،جـ١/ ق٢ ، ص٥١٦.

٢- ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص ١٣٢.

٣- أبو شامة ، المصدر السابق ، ص ٥١٦.

لم يحدث بالنسبة لإمارة طرابلس ، و لعل ذلك مرجعه إلي خطورة وضع أنطاكية بالنسبة لحلب ،وتهديدها علي نحو مستمر الأمر الذي وجه نور الدين إلي زيادة نشاطه العسكري نحوها ، بينما لم تشكل طرابلس تهديداً كبيراً لحدود الدولة النورية مثلما كان الحال عليه في شمال الشام .ومن جهة أخرى ، يلاحظ اختلاف سياسة نور الدين تجاه مملكة بيت المقدس عن سياسته تجاه الإمارات الصليبية ، إذ أنه عقد مع الأولي عدة معاهدات وهدنات بينما لم يحدث ذلك مع تلك الإمارات ،و تعليل ذلك أن الأمراء الصليبيين في الرها و انطاكية و طرابلس كانوا بمثابة أفصال إقطاعيين أمام الملك الصليبي ، ومن ثم فإن عقد هدنات معهم لم يكن يضمن لها الفاعلية بدون دعم الملك الصليبي نفسه ، ونقطة التبعية تلك هي التي كانت تدفع ذلك الملك إلي الإسراع بالذهاب إلي الإمارة التي تهددها الحروب في الدولة النورية .

و يلاحظ أن سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية ، توضح أن إمارة أنطاكية لم تتمكن من إسقاط مدينة حلب ، وذلك منذ أن عجز ريموند دي بواتيه عن إقناع الحملة الصليبية الثانية بالاتجاه صوب تلك المدينة ، لتستمر من بعد ذلك مصدر خطر لإمارة أنطاكية . إن ذلك العجز أضعف قوة الإمارات الصليبية في مواجهة الدولة النورية ، ودل علي أنها أرادت هي الأخرى الحفاظ علي أملاكها القديمة باقية ، بعد أن لم تتمكن من التوسع الخارجي علي حساب الدولة النورية بصورة جوهرية .

تشابهت تلك الناحية مع حدث بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس ، إذ فشلت الأخيرة في إسقاط دمشق ، الأمر الذي أضر بالمملكة بصورة كبيرة .إن عجز الدولة النورية و كذلك الإمارات الصليبية عن تحقيق نتائج جوهرية ، وقد دل بصورة واضحة علي أن كلا من الطرفين – بعد الإخفاق المتبادل – حرص علي اتباع سياسة التوازن مع خصمه ، وهي سياسة قامت علي جانب دفاعي ، وإن رأت أحياناً أن الهجوم خير وسيلة للدفاع .ومما تجدر الإشارة إليه ؛ أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري ، معارك كبيرة مثل يغري ، وأنب ، وحارم ، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع و الحصون ،مثل المنيطرة ، وأنطر طوس ، وغيرها .

كذلك اتسمت المعارك بين الطرفين بين الطرفين بعمليات السلب و النهب علي نطاق واسع ، ومن الإنصاف أن نقرر أن الجيش النوري قد غنم الكثير من وراء هجماته خاصة علي حصون الإمارات ولاشك أن ذلك كان من العوامل المشجعة علي غزوها

، بالإضافة إلاي الاعتبارات السياسية الأخرى .

و لعل أخطر ما تمخطت عنه سياسة الدولة النورية تجاه الإمارات الصليبية خاصة تجاه أنطاكية من نتائج ، التأكيد علي التكوين الداخلي لتلك الدولة ، إذ لم تكن لها أية موانئ علي الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، و هي التي سيطرت عليها القوى الصليبية ، فنجد أن محاولاتها لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل ، بسبب تصدي مملكة بيت المقدس و الإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه ، وأدي ذلك إلي نتائج مهمة ، إذ استمرت الدولة النورية لا تملك أية موانئ ، وبالتالي أساطيل يمكنها أن تهاجم بها القوى الصليبية، و مراكزها علي الساحل الشامي ، و هذا هو التعليل المنطقي لعدم وجود أدني إشارة في المصادر – المطبوعة علي الأقل - إلي أسطول تابع لها ، إن المعارك جميعها صارت معارك برية ،و لم تحدث أية معركة بحرية ، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية ، خاصة إمارتي أنطاكية و طرابلس اللتين امتلكتا ساحلاً ممتداً من السويدية شمالاً إلي ميناء جونيه جنوباً .

كما يلاحظ أن الصراع مع تلك الإمارات امتاز بناحية لم تتواجد في صراع الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس ، إذ امتدت جبهة المعارك من شمال الجزيرة إلي نطاق ممتد من شمال و غرب حلب إلي غرب دمشق ، بينما اتسمت حدودها مع مملكة بيت المقدس بالمحدودية ، إذ واجهت إقليم الجليل ، مع إدراك أن ذلك الوضع تم خلال الصراع في بلاد الشام لكن بامتداد المعارك إلي مصر في عهد الملك عموري اتسعت ميادين الصراع بين نور الدين ومملكة بيت المقدس علي نحو فاق الوضع بالنسبة للإمارات الصليبية .

ذلك عرض لسياسة نور الدين محمود تجاه الإمارات الصليبية .